نضاليات مسرح الهواة ـ مسرح رشادبوشعيب

كويندي مصطفى

في هذا المقال نحاول أن ننبش في ارشيف المسرح الهاوي بالمغرب عموما ، ومن خلال الجمعيات العاملة أو من خلال بعض رواد هذا الميدان الذين لا زالوا أحياء يرزقون وشواهد ثابتة لحضور هذا الفن وبامكانيات ضئيلة ان لم نقل منعدمة تماما .

ونحن في عملنا هذا ننطلق من هدفين اساسيين : أولا ـ كمشروع بحث مقترح على كل المثقفين ـ ان لم ندع المهتمين فقط ـ يقتضيه الظرف الاني او ما للهجمية الامبريالية المعادية لثقافة الشعوب الوطنية في محاولة طمسها من شراسة ، او طرحها وبشكل مبتذل للاستهلاك المحلي قصد تتميم عملية الاحتواء ومسخ الشخصية الوطنية وتكميل عملية الاستلاب على المستوى الثقافي امام فراغ الساحة وفي غياب وعي صحيح لارساء اسس صحية للثقافة الوطنية ولا يكون المسرح هنا الا رافدا من روافدها .

ثانيا ـ توفيرا لمواد طالما شكونا قلتها / الوثائق / النصوص المسرحية .. او سجلنا انعدامها ، بينما يبقى هذا الادعاء عائقا وهميا أمام تقاعسنا ، وفقد الاطار الداعي لمثل هذه العملية ـ جمع الوثائق وتوفيرها خاصة وأنه تاريخيا لا تخلو فترة من فترات الشعوب ان خلت من رصيد ثقافي كان المعبر الاول عن هموم الانسان وتفاعله والعالم المحيط به اثناء لحظات العمل .

انطلاقا من هذا كان اتصالنا بالسيد رشاد بوشعيب وهو واحد من رواد المسرح الهاوي بالمغرب وبالبيضاء على الاخص حيث كانت بدايته المسرحية تتسم بالجراة آنذاك ـ 1942 ، وما كانت تقتضيه ظروف القمع المسلط على الشعب المغربي تحت نير الحكم الفرنسي ، وخاصة عندما شنت النازية هجوما على فرنسا في محاولتها السيطرة على العالم ، وما لقيته المستعمرات الخاضعة لهذه الدول ومنها المغرب الخاضع لفرنسا ـ ونرى هذا واضحا في عمليات تجنيد المغاربة التي قامت بها فرنسا لمواجهة الزحف النازي او هي بهذا لا تخرج عن مبدا الاستغلال الذي بدأته بنهب خيرات البلاد واستنزاف قوة عمل ابنائه الى زجها بهم في جبهات القتال في محور التسلط

والقهر ، الذي يعاني منه هذا الانسان وعلى يد المستعمر الفرنسي الذي سلبه ارضه ونفاه في كاريار باشكو ، وفنادق المدينة القديمة ـ فندق البشير ويدعوه الان : كاجي تربح ستين .. (1)

في هذا الظرف الذي وجد فيه الانسان المغربي نفسه محشورا في حرب لاناقة ولا جمل له فيها ، وامام غياب وعي وطني صحيح ، انطلت عليه اللعبة وكان : ... «قالب سكر وزوج قراعي من الزيت» مسيلة للعابه وتنسيه مصيره في الاخير .. « ترجع بلا كراع بلا عين بلا حوايج .. كيف الحمار تعيش .. » (2)

في هذا الظرف تولدت حركة رافضة لهذا الواقع اخذت على نفسها رفع غشاوة الجهل والخنوع عن اعين المواطنين واشعارهم بحقيقة ما يجري : الازرق والابيض والاحمر ماشي رايتك .. رايتنا حمراء وفيها نجمة خضراء .. أفيق من الكلبة راها راية النصارى هاذيك .. » (3)

وعن طريق الكلمة ووسط الحلقة بالباب الجديد (4) يبدأ المواطن بالتعرف على حقيقته وحقيقة المستعمر وما يجب عليه ان يفعله ازاء عملية التجنيد المغربية والتي ليست الا تنميما للقهر والتسلط ، وعلى مستوى الكلمة كانت المواجهة والانتفاضة الاولى آنذاك وفي غياب اي عمل وطني ـ حركة ـ وبدأ المغربي يرفض الانخراط في سلك الجندية ـ المكاجية ـ اللهم بعض الدعوات المتمثلة في المطالبة بتطبيق بنود الحماية للحفاظ على مصالح البرجوازية «الوطنية» والتي كانت تتمثل في الكتلة الوطنية آنذاك ولم تكن تدعو لغير هذا بينما بقيت الطبقة الكادحة ترزح تحت الاستغلال والاستفزازات الممارسة ضدها . هكذا ابرزت بساحة باب الجديد بالمدينة وبمقهى أسعيد بيوسبير ، ووسط الاحياء الشعبية هذه الكلمة وعلى شكل حلقة لتشخيص عملية التجنيد ومصير المجند بعد عودته الى الوطن وكان ذلك على يد عناصر شابة وعت دورها الوطني في وقت تكالبت فيه كل قوى الشر ضد الوطن والمواطنين ، فكان صوت بوشعيب رشاد وحضوره الفعلي يكسر جدار الخنق ومن وسط هذه الساحات الشعبية والتي تحتضن الان افخم الفنادق والمتاجر بالمدينة (فندق الدار البيضاء) . وكان الميلاد الفعلي للمسرح الهاوي بالبيضاء وانطلاقا من الحلقة (3) التي كانت وجها اخر لتمرير ايديولوجية المستعمر وقتل طاقات جماهيرنا وشل قدراتها العقلية وتبليد حسها الوطني على امل العيش في متون الماضي الارستقراطي واستنمائه لتوليد «عفريت» يحقق حلما لن يتحقق او لتفريخ «عنترة» يبيد جيشا جرارا ـ في حين ان الامر يقتضي تعرية هذا الواقع والعمل على تغييره وبطرد المستعمر الشيء الذي لم تعه الحركة الوطنية الا بعد سنتين من ميلاد لفعل في الساحة ـ المسرح ـ الاغنية (5) ، وبعد ان عاشت منطقة الريف انتفاضة الخطابي ، ومن هنا تكون هذه البداية فرقة رشاد بوشعيب بداية

صحية في منحاها السياسي والتي ليست الا البداية الفعلية للكلمة ، منذ ان وجد الانسان ورفع الصراع من المستوى الديني ـالكفار ، الى مستواه السياسي ـ الاستغلال ـ الاستعمار وهذا ما تقدمه لنا بالفعل اعمال رشاد بوشعيب التي ليست الا سجلا نضاليا ينضاف لتجربة الهواة والتي لا زال يحفظها هذا الرجل عن ظهر قلب ، وكأنه لم يعشها الا اليوم ، والتي تعيد للمسرح المغربي صحوته رغم رقابة المستعمر الفرنسي الخانقة وعيونه المبثوثة في كل مكان ، بالاضافة للتشويهات الصحفية التي كانت تقوم بها صحافته والتي تستهدف كل من اظهر وطنيته وغيرته على هذه البلاد وتسميم الاجواء من حوله قصد عزله ، وهذا ما يظهر جليا في الكتابات التي تناولت مسرح رشاد بوشعيب والمنشورة بجريدة السعادة سنة 1952 .

بقي لنا الان ان نستعرض اعمال رشاد منذ سنة 1942 حتى سنة 1955 ومن خلالها سيتضح لنا مدى ارتباط هذه التجربة المسرحية وما كان يعنايه الشعب المغربي وسنقتصر على مرحلة ما قبل الاستقلال على ان نعود لتناول اعماله بعد الاستقلال في مقال اخر .

يقول رشاد بوشعيب عندما كنا نخرج من المسيد ونحن اطفال نشاهد الناس يتكلمون جماعات جماعات ، ولا ندري فيماذا يخوضون ، ومرة سمعناهم يقولون ان فرنسا فتحت باب التجنيد في وجه المغاربة وكانت الدفعة الاولى وعاد بعض المواطنين فاقدين بعض اعضائهم فمنهم من عاد برجل واخر بعين وثالث بيد بينما الاقبال على التجنيد مستمر ومن هنا كانت البداية وكانت حيلة محو الالواح للانفلات من قبضة الفقيه لجمع الاخبار وتشخيصها بالباب الجديد ، ثم كانت فكرة العرض بمسرح السبليون وهو عبارة عن براكة يقيمها الاسبان وتعرض بها عروض مسرحية هزلية ، يقول رشاد بوشعيب وكنا نعرض بمقهى أسعيد الموجود بدرب السلطان قرب بوسبير ثم بالمسرح البلدي وبالسينما الملكي ، اما عن الجمهور فيقول رشاد ان الناس كانوا يجلسون على الضس بعد ان تغص كل القاعات الشيء الذي كان يثير الفرنسيين والسبب في ذلك يقول رشاد هو تعاطف الجمهور مع قضيته الوطنية التي نذبت الفرقة نفسها لخدمتها :

العروض المسرحية حسب سنوات عرضها :

1) 1942 ـ وهي السنة التي تأسست فيها جمعية التمثيلية البيضاوية التي يرأسها رشاد بوشعيب حيث قدمت مسرحية «بالنسب ينتفي الفساد» وقد كتبت بلغة عربية فصحة ، وعرضت بالمسرح البلدي وهي كما يوحي عنوانها دعوة للرجوع الى الاصل العربي وضرب كل البدع التي حملها المستعمر وتتمثل هذه العملية في شخص الزوجة ـ الورعة ـ الاصل ، والزوج ـ السكير ـ المتفرنس ، وتنتهي المسرحية بافلاس الرجل وعودته لا تباع

عادات الاجداد اقتداء بزوجته .

2) 1943 ـ الارض الطيبة وهي تحليل لواقع الاستغلال الممارس ضد الشعب المغربي من طرف المستعمر الفرنسي والممثل في شخص فلاح صغير ، تنتزع منه ارضه من قبل فلاح فرنسي وتحت طائلة المضايقات التي لا تخلو من تدخل بعض الفئات المتامرة معه لتحقيق هدفه والتي لن تتوقف عن ممارساتها هذه مما دفع المزيد من الفلاحين الى الفقر وبروز طبقات اقطاعية جديدة هي خليط من الفرنسيين والمتعاونين معهم لكن الفلاح الصغير لم يسكت عن ارضه ولم يغادر قريته كما اراد المستعمر والمتامرين معه بل لازال يتربص بالمغتصب حتى تمكن من قتله الشيء الذي أثار السلطات الفرنسية وجعلها تتراجع عن ترخيصها الاول بتليغراف وتلغي العرض الذي كان سيقدم بمدينة الجديدة لولا تدخل بعض العناصر التي تثق بها السلطات بالمدينة والمسرحية كما نرى وحسب الظرف التاريخي الذي قدمت فيه سابقة لعمليات المقاومة المنظمة من قبل الكتلة الوطنية آنذاك بل حتى من تاريخ تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال .

3) 1944 ـ الفتوح : وهي مسرحية تاريخية تذكر بقوة الاجداد ومدى فعاليتهم الشيء الذي صارت تفتقده هذه الجماهير أمام قوة المستعمر و هنا نكاد نلمس تأثير خط الحركة الوطنية على الجمعية وابراز عامل الدين وماله من قوة وخاصة اذا عرفنا انها قدمت في نفس السنة التى قدمت فيها وثيقة الاستقلال .

4) 1945 ـ دماء الشهداء : وهي مسرحية عرضت بعد تقديم وثيقة الاستقلال والتاثير الذي لاحظنا بعض لمساته في المسرحية السابقة نراه هنا بشكل جلي ويتمثل في الاعتماد على السلم في مقاومة المستعمر وعن طريق فلسفة اللاعنف التي نهجها غاندي ضد الانجليز بالهند وهذا مخالف تماما لما شاهدناه في مسرحية الارض الطيبة سنة 1943 ، وهذا تدني بحد ذاتـــه حتى عن مسرحية الفتوح سنة 1944 وربما كان سقوطا بين احضان الكتلة الوطنية وتدعيمها للمطالبة بالاستقلال وهذا اقصى ما وصلت اليه الكتلة وتحت اشتداد تحركات الجماهير ومحاولة لجمها وقيادتها .

ورغم هذا فان اصرار الجمعية على اعتبار الاستقلال والتعجيل به هو الحل لتفاقم ازمة الشعب وفي الحصول عليه خلاصة تبادر قوات المستعمر لتوقيف العرض قبل نهايته واعتقال الممثلين وتشتيت المتفرجين مع العلم أنها عرضت في الهواء الطلق بعد رفض الترخيص للجمعية بعرضها على خشبة المسرح .

5) 1946 ـ خلال هذه السنة قدمت الجمعية مسلسلين اذاعيين الاول بعنوان: «الاشباح» وهو تسلسل لاحداث عاشتها اسرة صغيرة تتكون من ام وطفلين بعد اعتقال الام بتهمة السرقة مما جعلهما بالبحث عن حل لخلاص الام

ومن خلال عملية البحث يعانيان الامرين من جزاء قسوة الحياة والمسلسل الثاني بعنوان «قا باع» حيث يرتكز على فكرة (جناية الكبار يؤدي ثمنها الصغار) فالاب يجرم ويؤدي الابناء ثمن جريمته وكلا المسلسلين وطبيعة طريقة ايصالهما للجمهور «الاذاعة» التي كانت بيد المستعمر لم يأخذ الطابع الرمزي الا لطبيعة الظرف المعاش الا أن هذه المرزية لم تغرق في الميتافيزيقية وانما بقيت امدادا للمعاناة الكبرى التي تعيشها الجماهير المغربية تحت جبروت المستعمر الفرنسي هكذا لا تنحصر طبيعة صراع الكبار والصغار ظاهرا حسب المسلسل وانما على المستوى الوطني والاحداث المعاشة

6) 1947 ـ حكمة الله ، وهي تحكي خيانة صديق لصديقة في شخص زوجته التي راودها عن نفسها فلم تستجب لطلبه نظرا لتقواها وتشبثها بعراقة الاصل الشيء الذي اثار الصديق وجعله يحيك الاكاذيب للانتقام منها وذلك بالكيد لها لدى زوجها الذي كان يثق في هذا الصديق وبالاضافة لهذا يحاول وتاكيدا لافترائه على الزوج أن يتصيدها بين يدي رجل تخونه معه الشيء الذي لم يفلح في تحقيقه عندما يدبر عملية قتل شخص ويدفع به داخل منزلها وفي الوقت الذي يكون فيه الزوج موجودا ، فما كان من هذا الاخير امام ما رأى الا اخطار الشرطة التي القت القبض على الزوجة .

7) 1948 ـ خلال هذه السنة قدمت الجمعية مسرحية غنائية «اوبريت قيس مغربي» ادتها مجموعة من العازفين تتكون من ثلاثين عازفا من بينهم ثماني فرنسيين ، والاوبريت عبارة عن قصة حب بين شابين فرقت بينهما ظروف الدراسة الا يأن التقيا فكانت الفتاة قد خطبت من طرف اب الشاب الذي توفت امه ، وعند اكماله لدراسته وعودته الى بلاده وجد اباه قد خطب حبيبته للتزوج بها ، وقد كانت الفتاة تعرف هذا ، وكذلك الاب ، وهكذا اعدت مفاجأة للشاب ـ حبيبها ، وعندما يحضر الشاب ويعرف ان حبيبته ستصبح زوجة لابيه يقرر الرحيل الا أن الفتاة تمنعه من ذلك حتى يرى المفاجأة التي خبأتها له وهي عبارة عن قارورة سم افرغتها في جوفها وعلى مرأى منه ، وامام هذا الوفاء والاخلاص الواضح لم يتوان الشاب في اكمال ما بقي بالقارورة في جوفه هو الاخر ويتمدد الى جانبها وفي هذه الفترة يدخل الاب الذي يكون قد دخل لاحضار مفاجاته هو الاخر وهي عبارة عن عقد زواج الشاب والفتاة بعد ان علم بعلاقتهما لكنه يجدهما جثثين هامدتين o

8) 1949 ـ الشعلة الحمراء ، وهي تمجيد لعمل المراة الى جانب الرجل في احلك الظروف والمتمثلة في زوجين كل منهما يعمل لصالح الوطن ويكتم امره عن الاخر الى أن يتم اعتقال الزوج فتقوم المراة باتمام المهمة بعد أن تدرك انها ليست وحدها في الميدان بل حتى زوجها الذي كانت تظن به الظنون ، وهذه المسرحية تبلور الاحداث التي عاشتها البلاد ومنذ انقدمت وثيقة الاستقلال ولم يحصل اي شيء وامام بعد الحل السياسي في اعطاء

الحل للازمة الوطنية فلا يكون هذا العمل ايجابيا الا بربطة بتنظيم المواطنين في خلايا للعمل ـ الفداء ـ وهذا ما دعت له الجمعية منذ سنة 1943 لكن الاحداث التي تعاقبت عرفت تطورا على صعيد القمع ، اما العمل الوطني فقد حصرته الكتلة في وثيقة المطالبة ومحاولة الركوب على المد الجماهيري وذلك بعد ان برزت تنظيماتها الحزبية البرجوازية للساحة (الاستقلال الشوري ، الامة ،،) وبعد أن عرف الشعب قمعا وحشيا سنة 1947 ـ ضربة ساليغان ، بعد ان جندهم الفرنسيون مثل ما فعله في تجنيد المغاربة لضرب الهند الصينية والتي انتهت حربها الفعلية بالهزيمة سنة 1954 في ديان بيانفو ، وهذه التطورات جاءت نتيجة استيلاء البرجوازية الاستعمارية على جهاز الدولة سنة 1947 وابعاد الوزراء التقدميين من الحكومة الفرنسية (6) .

9) 1950 ـ اولاد الاغنياء، اذا كانت المسرحيات السابقة تحاول رصد واقع نضالات الجماهير المغربية الكادحة ضد المستعمر الفرنسي فان هذه المسرحية هي رصد أخر لهموم شرذمة متسلطة ومتامرة على هذه الجماهير ولم يكفها هذا بل عمدت الى تمييع هذا النضال وذلك بمحاولة جرها عناصر وطنية لمواخر الهوى الفساد والذي يتمثل في بيوت واطئة لممارسة دناءتها هذه ولا هم لها الا هذا وهكذا تعمل هذه المسرحية على ادانة وفضح هذه الشرذمة المتسلطة والمستفيدة من قمع جماهيرنا المغربية في هذا الوقت العصيب

10) 1951 ـ اليتيم المظلوم ، وقد يتبادر الى الذهن انها حكاية لطفل يتيم وانما لرجل يجد نفسه لا زال يعيش تحت الوصاية تماما كالطفل اليتيم ، وهذه الوصاية تتحول في هذه الحالة الى ظلم ثم الى فقدان الشخصية وهذا مستوى أخر لاعادة الاعتبار لقدرات الانسان وتركه يتحكم في مصيره بلا احتضان ولا وصاية .

11) 1952 ـ جريمة في نصف الليل ، وهذه السنة وشم في ذاكرة الجماهير الكادحة بالمغرب العربي ، فخلالها تم اعدام المناضل الدقابي فرحات حشاد أما بالنسبة للمغرب فقد تم خلالها حشد العمال المغاربة بمقر بورصة الشغل وحصدتهم بنادق الفرنسيين ، وكانت مجزرة فظيعة والمسرحية ليست الا ترسيخا لهذه الاحداث التي مرت في ليل الظلم والاغتصاب ، وكان الانسان العربي في الركن الغربي من القارة الافريقية هدفا لها .

من سنة 1953 الى 1955 : توقفت الجمعية عن العمل تبعا لطبيعة الاحداث المعاشة والتي تميزت بتصاعد عمليات القمع والتي شهدت ميلاد المقاومة الفعلية للمستعمر على خارطة الوطن كله ، وكان ميدان الفن من ضمن الساحات التي قدمت دماء زكية فداء للوطن وعلى الاخص الشهيد الطاهر العلوي الذي كان عضوا عاملا بجمعية التمثيلية البيضاوية وزميله الراشدي اللذان اعدمهما المستعمر بسجن العاذر بالاضافة الى العناصر العاطفة على الجمعية ، الذين بلغ عدد المعتقلين منهم انذاك الثمانون للتنكيل بهم

لوطنيتهم المخلصة .

وهكذا نرى بوضوح مزاوجة العمل الفني للعمل السياسي على مستوى مسرح الهواة بالبيضاء في مواكبة مسيرة جمعية التمثيلية البيضاوية وبرفقة السيد رشاد بوشعيب الذي ندب نفسه لهذا الميدان ، وتسقط خرافة الفصل بينهما وقد ظهر جليا ومن خلال الاعمال المقدمة مدى انحناءات خط مسار الجمعية وهذا بطبيعته راجع لغياب وعي وطني صحيح لمواجهة المستعمر وبقي محصورا في الغالب على الوازع الديني والاخلاقي لاثارة الجماهير وتحريضها ضد المستعمر الا في بعض المسرحيات الاولى التي لم يكن عمل الكتلة الوطنية المشكلة من الفقهاء والعلماء والتجار ، قد مسها لإنحصاره على بعض المناطق ولقوة المستعمر الذي ضرب عرض الحائط بنود الحماية الداعية لاستتباب الامن وحفظ مصالح هذه الكتلة الطبقية ، عندما احست بتعارض هذه المصالح والمنشآت التي بادر الى انجازها الفرنسيون وامام تصاعد السخط الجماهيري (نزع اراضي الفلاحين الصغار ، تشريد العمال ، الظهير البربري) كل هذه العوامل ساعدت على بروز مبادرة الكلة الوطنية في تقويم وثيقة المطالبة بالاستقلال والمطالبة فقط ، هذه العملية التي انقادت لها الجماهير ولكنها لم تحقق شيئا من سنة 1944 حتى سنة 1952 حيث عاودت فئول المقاومة عملياتها على شكل مبادرات فردية يحذوها حسها الوطني الذي انطلت عليه لعبة الاحزاب فاحتوت بعضه فيما بعد 1953 ـ 1954 ونفس هذا الاحتواء هو ما حدث بالميدان الفني كما اسلفنا وفي شروط غياب وعي سياسي وطني صحيح لكن تبقى تجربة رشاد بوشعيب رائدة في الفن المسرحي ومخلدة ارتباط النضال الثقافي الى جانب النضال السياسي وهذه المرة في صفوف الهواة والهواة فقط .

هوامش

1) اغنية شعبية يؤديها بوجمعة الفروج والحسين السلاوي .
2) اول مسرحية عرضها رشاد بوشعيب بساحة الباب الجديد وكانت مرتجلة وهي في نفس معنى الاغنية .
3) نفس المسرحية السابقة .
4) الباب الجديد ساحة موجودة بالمدينة القديمة بالدار البيضاء .
5) من رواد الاغنية آنذاك ـ مارتان (لقب) عينين الميرنة (لقب) .
6) مقدمة كتاب الاستعمار الفرنسي بالمغرب العربي ، ايف لاكوست وآخرون ، ترجمة م. عيتاني .